

تفسير ابن كثير

يقول تعالى : تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن أي من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته : . (ففي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد) .

كما قال تعالى : { تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا } وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا سعيد بن منصور حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة حدثنا عروة بن رويم عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى كان بين المقام وزمزم جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطارا حتى بلغ السموات السبع فلما رجع قال : [سمعت تسبيحا في السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا سبحانه العلى الأعلى سبحانه وتعالى] .

وقوله : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله { ولكن لا تفقهون تسبيحهم } أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفي حديث أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان حدثنا لهيعة ابن حدثنا حسن حدثنا : أحمد الإمام وقال المسانيد في مشهور حديث وهو هم زبان عن سهل بن معاذ عن ابن أنس عن أبيه B عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم : اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا] منه [.

وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال : [نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع وقال نقيقتها تسبيح] وقال قتادة عن عبد الله بن أبي عن عبد الله بن عمرو أن الرجل إذا قال لا إله إلا الله فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله من أحد عملا حتى يقولها وإذا قال : الحمد لله فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها وإذا قال : الله أكبر فهي تملأ ما بين السماء والأرض وإذا قال : سبحان الله فهي صلاة الخلائق التي لم يدع الله أحدا من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبيح وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله قال : أسلم عبدي واستسلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت الصقعب بن زهير يحدث عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال : [أتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابي عليه جبة من طيالة مكفوفة بدياج أو مزورة بدياج فقال : إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع بن راع ويضع كل رأس بن رأس فقام إليه النبي صلى الله عليه وسلم مغضبا فأخذ بمجامع جيبه فاجتذبه فقال : لا أرى عليك ثياب من لا يعقل ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس فقال : إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه فقال : إني قاص عليكما الوصية آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك بالله والكبر وأمركما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرض وما فيها لو وضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتهما أو لقصمتهما وأمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء] ورواه الإمام أحمد أيضا عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن مصعب بن زهير به أطول من هذا وتفرد به .

وقال ابن جرير : حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي حدثنا محمد بن يعلى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله قال : [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحا عليه السلام قال لابنه : يا بني آمرك أن تقول : سبحان الله فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق وبها يرزق الخلق] قال الله تعالى : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } إسناده فيه ضعف فإن الأودي ضعيف عند الأكثرين وقال عكرمة في قوله تعالى : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } قال الأسطوانة تسبح والشجرة تسبح - الأسطوانة - السارية وقال بعض السلف : صرير الباب تسبيحه وخرير الماء تسبيحه قال الله تعالى { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم قال : الطعام يسبح ويشهد لهذا القول آية السجدة في الحج وقال آخرون : إنما يسبح ما كان فيه روح يعنون من حيوان ونبات .

قال قتادة في قوله : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } قال : كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه وقال الحسن والضحاك في قوله { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } قالوا : كل شيء فيه الروح وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن حميد حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قالوا : حدثنا جرير أبو الخطاب قال كنا مع يزيد الرقاشي ومعه الحسن في طعام فقدموا الخوان فقال يزيد الرقاشي : يا أبا سعد يسبح هذا الخوان ؟ فقال : كان يسبح مرة - قلت : الخوان هو المائدة من الخشب - فكأن الحسن ذهب إلى أنه لما كان حيا فيه خضرة كان يسبح فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقبيرين فقال [إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة] ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين ثم غرز في كل قبر واحدة ثم قال [لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا] أخرجاه في الصحيحين قال بعض

من تكلم على هذ الحديث من العلماء : إنما قال ما لم يبسا لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة فإذا يبسا انقطع تسبيحهما وإنا أعلم .

وقوله { إنه كان حليما عفورا } أي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين [إننا ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته] ثم قرأ رسولنا صلى الله عليه وسلم { وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة } الآية وقال تعالى : { وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة } الآية وقال { كأين من قرية أهلكتنا وهي ظالمة } الآية ومن أطلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى الله تعالى تاب إليه وتاب عليه كما قال تعالى : { ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر إننا نغفر له } الآية وقال ههنا { إنه كان حليما عفورا } كما قال في آخر فاطر { إننا نغفر له السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما عفورا } إلى أن قال { ولو يؤاخذ الله الناس في كل ما كسبوا لفرقت السموات والأرض وما بينهما لولا أن ينزلنا ربنا كفايا لفسدت السموات والأرض وما بينهما لولا أن ينزلنا ربنا كفايا } إلى آخر السورة